

سامر خير

المكان يغادرنا كالغيوم



المكان يغادرنا كالفيوم

سامر خير

ألمكانُ يغادرنا كالغيوم

كُتِبَتْ هَذِهِ الْقِصَائِدُ بَيْنَ الْعَامَيْنِ

١٩٩٧ وَ ٢٠٠٠

حقوق الطبع محفوظة

إصدار مطبعة الوادي - حيفا

هاتف: ٨٦٧٧٧٦-٤

الطبعة الأولى

نيسان ٢٠٠١

أَيُّهَا اللَّحْظَةُ الْعَابِرَةُ

إِبْقِي قَلِيلًا

أَيُّهَا الْمَكَانُ الْعَابِرُ

خَفِّفْ عَنَّا بَعْضَ النَّسِيَانِ

مِنَ الْآنَ كُنْ يَا طَرِيقِي طَوِيلًا ..

باب في السقف

سأذكرهم

أصدقائي القدامى

كما هم .. تماثيل ملح

وأذكر شخصاً سواي

هناك

سأذكرُ طفلاً
بكى فوقَ أشتالِ أحلامه
كان يرسمُ باباً على السَّقْفِ
يخرجُ منه إلى شارعٍ
كان يرسمُهُ
بخطيِّ كالمطرِ
.. سأذكرُ كلَّ خطاهُ
التي ما خطاها
وظلَّتْ أمامي أثرُ
وراءَ أثرُ
وراءَ أثرُ

كيف لي أن أعود؟

سأذكرُ أنَّ عَلَيَّ الرَّحِيلَ

لأرجعَ من غَيْمَتِي

ظافراً بجراحِ الطَّرِيقِ

وأني رَحَلْتُ إلى جَسَدِي

حاملاً زادَ جُوعِي

(رأيتُ أبي لَوْزَةً مِنْ هُنَاكَ

رأيتُ المقابرَ مِنْ غَيْرِ بَحْرٍ

سِوَى صَدَفٍ كَاذِبٍ

وَرَأيتُ نُيُوبَ الدُّخَانِ

عَلَى القَمَحِ بَارِزَةً)

أَيْنَ جَدِّي هُنَا

فِي هَوَاءِ بَسَاتينِهِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أَعُودَ

إِذَا لَمْ أَجِدْ مِنْ رُجُوعِي

سِوَى دَمْعِ أُمِّي؟

فِي انْتِظَارِ رَجُوعِكَ

مَغَارُ

...سَأَذْكُرُ مِنِّْي سِوَايَ

وَأَذْكُرُ مِنْكَ سِوَاكَ:

مَصَبُّ غَرَّتِهِ الْبِحَارُ

وَأَحْلَامُكَ الْبَيْضُ

فَوْقَ سَطُوحِ الْكَهُوفِ

وطيبةٌ قلبك رَقَّ لها
حَدِيدُ السُّيُوفِ!

... هُنَا كَانَ جَدِّي
يُسْرَحُ أَغْنَامَهُ

فِي تَدِيِّ سُفُوحِكُ
هُنَا كَانَ يَبْدُرُ أَنْفَاسَهُ

فِي جُرُوحِكُ
هُنَا ظَلَّ يَبْكِي طَوِيلاً
عَلَى الْعَيْنِ

لَا يِرْتَوِي مِنْ دُمُوعِكُ
هُنَا ..

فِي انْتِظَارِ رُجُوعِكُ!

* المغار هي قرية الشاعر في الجليل

سأذكر تلك المدينة

سأذكرُ تلكَ المدينةُ

كَتَلِكِ المَدِينَةِ: لَيْلًا بِلا قَمَرٍ

غَيْرِ قَلْبِي

يَدُقُّ عَلَى طَائِرٍ حَائِرٍ

وَهُوَ يَحْفَرُ فِي الأَرْضِ

دَرْبَ جَنَاحِيهِ:

لَا شَيْءَ إِنْ لَمْ نَرَهُ

وَلَا شَاطِئًا

بَعْدَ هَذِي السَّفِينَةِ

سَأذْكَرُ عَيْنِي

أَوْ أَذْكَرُ الْكَامِيرَا

فِي الْمَدِينَةِ

وَأُجْهِدُ ذَاكَرْتِي :

هَلْ سَمَاءٌ هُنَاكَ

فَوْقَ الرِّيَّاحِ السَّجِينَةِ؟

سَأذْكَرُ تِلْكَ الْمَدِينَةَ

كَتِلْكَ الْمَدِينَةَ

قضيٖنا سريرا معا

سأذكرها

لَمْ تَكُنْ غَيْمَةً فَوْقَ رَمْلِي

كَانَتْ سَرَابًا ...

مَضَتْ دُونَ مَا طَلَّلِ

غَيْرِ قَلْبِي وَبَعْضِ الْهَدَايَا

مَضَتْ

وَهِيَ تَتَّقِنُ حَكَ الْقَمَرِ

بِحَلْمَتِهَا ...

قَضَيْنَا سَرِيرًا مَعًا:

هِيَ تَعَصُرُ نَائِي

أَنَا أَعْتَلِي نَارَهَا

بِقَمِي وَالْمَطَرِ

هِيَ تَشْرَبُنِي

وَأَنَا أُرْتَوِي

كَالْحَجَرِ

..

وَمَضَتْ

وَمَضَتْ

لَم يَنْتَبِهْ

سَأذْكُرُهُ

كَانَ يَصْرُخُ فِي فَمِهِ

كَانَ يَبْكِي خُطَاهُ عَلَى الرَّمْلِ

كَانَ يَعْبُ النَّبِيذَ

مِنْ دَمِهِ

كَانَ

كَانَ

وَكَانَ يُجِيدُ الْوُصُولَ إِلَى شُغْلِهِ كُلِّ يَوْمٍ
وَيَرْجِعُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ كَيْ يَجِدَ الْيَأْسَ فِي
بَيْتِهِ سَاهِرًا فِي انْتِظَارِ خَطَاةِ الْقَلِيلَةِ. كَانَ
يُنَادِمُهُ وَيَقُولُ مَدَادًا كَثِيرًا عَنِ الثُّورَةِ ..
الْفُقَرَاءِ .. وَلَمْ يَنْتَبِهْ

لِتَجَاعِيدِ أَوْرَاقِهِ حِينَ يَغْسِلُهَا فِي الصَّبَاحِ
وَبَنَى قَفْصًا
وَتَمَدَّدَ فِيهِ

...

وَمَاتَ .

عَسَى أَنْ يَكُونَ اسْتِرَاحَ

عَسَى أَنْ يَكُونَ

اسْتِرَاحُ

لماذا قطعت الطريق الطويل

سأذكرُ حينَ أُحبُّ

لماذا، قَطَعْتُ الطَّرِيقَ الطَّوِيلَ

إلى الآنَ

رغمَ دُخانِ التَّعبِ

.. قَطَعْتُ الطَّرِيقَ الطَّوِيلَ

لَكِي أَلْتَقِيكَ هُنَا قُرْبَ قَلْبِي

بِلا مَوْعِدٍ

وَأُحِبُّكَ دُونَ سَبَبٍ

وَأَسْكُبُ دَمْعِي عَلَى وَجْنَتَيْكَ

وَيَقْطُرُ بَيْنَ يَدَيْكَ ذَهَبٌ

مِنَ الْآنَ

كُنْ يَا طَرِيقِي طَوِيلًا

طَوِيلًا طَوِيلًا طَوِيلًا

طَوِيلًا طَوِيلًا

طَوِيلًا

طَوِيلًا

ذِكْرِيَاتُ الرَّمَادِ

أَحِبَّنِي أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي

وَضُمَّنِي كَالثُّوبِ

بَلْ أَقْرَبَ يَا حَبِيبِي

وَشَدَّنِي إِلَيْكَ كَالْأَرْضِ

لأَحْيَا فِيكَ يَا حَبِيبِي

وَلَا تَمَلَّ مِنْ كَلَامِ الْحُبِّ

فِي أُذُنِي يَا حَبِيبِي

وَلَا تَغِبْ

إِلَّا لِكِي تَشْتَاقَ لِي

أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي

أَنَا بِحَاجَةٍ لِعَشْرَةٍ مِنَ الْقُلُوبِ

أَحِبَّنِي أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي!

رسالتان

(١)

أُحِبُّكَ لَيْلَى
وَأُحْفَنُ رَمْلَ قُؤَادِي
وَأُرْمِيهِ رَمَلًا
عَلَى وَجْهِ هَذَا الزَّمَانِ..
أُحِبُّكَ لَيْلَى
أُحِبُّكَ لَيْلًا
وَلَيْلًا!

(٢)

أُحِبُّكَ.. لَكِنَّ أَهْلِي

عُيُونٌ تُسَيِّجُ خَيْلِي

أَرَاكَ قَرِيباً

وَأَنْتَ بَعِيدٌ كَظَلِّي

وَيَبْعُدُ عَن بَدْرِ وَجْهِكَ لَيْلِي

كَمَا شَاءَ أَهْلِي

وَأَفْعَلُ مَا لَيْسَ يُرْضِي يَدَيَّ

وَمَا لَيْسَ يَبْغِيهِ نَحْلِي

إِذَا فَاحَ عِطْرُ عُيُونِكَ

بِي مِثْلَ عَاصِفَةٍ

فَوْقَ رَمْلِي

كَمَا شَاءَ أَهْلِي

وَأَبْعُدُ عَنْكَ لِيَقْتُلَنِي زَمَنٌ

كَانَ أَهْوَنَ مِنْ لِحْظَةٍ مِنْهُ قَتَلَنِي

كَمَا... شَاءَ... أَهْلِي

مشاهد

(١)

: حَرَامٌ عَلَى الشَّمْسِ
هذِي الْفَوَاكِهِ دُونَ يَدَيْكَ
حَرَامٌ عَلَى النُّضْجِ أَكْثَرَ فِي سَلَّةِ الْبَيْتِ
دُونَ يَدَيْكَ وَلَا شَفَتَيْكَ
حَرَامٌ عَلَى التُّوبِ يَلْمَسُهَا
وَعَلَى الْمَاءِ يَحْضُنُهَا فِي الْمَرَايَا ...
إِذَا اشْتَأَقَ حَقْلِي إِلَيْكَ ...
تَعَالَ تَعَالَ تَعَالَ
حَرَامٌ عَلَيْكَ !

(٢)

حِينَ عَضَّتْ يَدِي بِأَصَابِعِهَا

حِينَ عَضَّتْ يَدِي

وَهَوَتْ شَفَتَايَ عَلَى شَفَتَيْهَا كَتُّفَاحَةٍ نِيوْتُنْ

..كَانَ غَيْمٌ يَمُرُّ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ تَعَرِّيِ التُّرَابِ

تُحَرِّكُهُ رِيحُهَا. كَانَ يُبْرِقُ دُونَ عُيُونِي

كَانَتْ الْأَرْضُ بَحْرًا يَمُوجُ بِهَا عَطَشٌ طَافِحٌ .

حِينَ عَانَقَهَا بِالْمَطَرِ

..كَانَ يَشْتَدُّ فِي عُودِ غَيْمِي وَتَرُّ

كَانَ يَشْتَدُّ

يَحْتَدُّ ...

كَانَ يَفْحُ

وَيَرْتَدُّ

حَتَّىٰ انْهَمَرُوا

شَهْدَهُ

فِي تُرَابِ الْقَمَرِ

شَهْقَةً

شَهْقَةً

.

.

.

(٣)

أَتَدَحْرُجُ نَحْوَ الْغُرْفَةِ

فِي أَعْلَى الْبِنَايَةِ

مُتَّقِلاً بِالْخَفَّةِ هَذَا الْمَسَاءَ

تَنْتَظِرُنِي امْرَأَةٌ

لَا هِيَ لَابِسَةٌ

لَا هِيَ عَارِيَةٌ

كَالشِّتَاءِ الْحَارِّ

مُتَّقِلاً بِالْخَفَّةِ هَذَا الْمَسَاءَ

تَسْتَقْبِلُنِي امْرَأَةٌ

أَطْفَأْتُهَا النَّارَ

(٤)

...

كَيْفَ أَنْسَخُ عَنْ شَفَتَيْكَ

احمرار اللُّهَاتِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أُكْنِيَ عَنْ أَنْتِ؟

هَلْ بِشَمْعَتِنَا أَمْ بِمَوْجِ السَّحَابِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أُكْنِيَ عَمَّا تَرَيْنَ

بِعَيْنَيْنِ مُغْمَضَتَيْنِ؟

بِعَيْنَيْنِ أَمْ بِكِتَابِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أُكْنِيَ بِالْبَرْقِ

عَنْ نَشْوَاتِ التُّرَابِ؟

كَيْفَ لِي أَنْ أُقْلِدْنَا

هَاهُنَا قَبْلَ سِيَّجَارَتَيْنِ؟

حَتَّى الصَّبَاحِ
وَأَنَامَ عَلَى لَيْلَتَيْنِ
مِنَ الصُّوفِ ..
لَكِنِّي
عُدْتُ مِثْلَ الظَّلَامِ مَسَاءً
بِلا نَجْمَتَيْنِ ..
تَرَكَتُهُمَا لِصَبَاحِكَ
عُدْتُ وَحْدِي
حَزِيناً وَضَاحِكُ
مِثْلَمَا كُنْتُ
أَوْ كَانَ
يُمْكِنُ
أَنْ ..

كم ليلة هكذا تنطفئ ؟

(١)

كَمْ فَتَاةً وَحَدَّهَا الْآنَ تَجْلِسُ

بردانةً كمدفأة...

كَمْ فَتَى وَحَدَّهُ الْآنَ يَجْلِسُ

خاويًا كمرآة

لولا عواءُ الذكريات...

كم فتاة؟ كم فتى؟

كم ليلةً هكذا تنطفئ ؟

(٢)

تُصرِّخُ الشَّهْوَةُ كالأفْعَى عَلَى صَدْرِهَا...

تُؤَلِّوُلُ كَالرِّيحِ

فَوْقَ مِيَاهِهَا الرَّأكِدَةَ...

تُكْسِرُ الرُّجَاجَ حَوْلَهَا حِينَ تَنْعَسُ..

تَعْصِرُ العِنْبَ عَلَى جَسَدِهَا

وَتَلْعَقُهُ ...

كَمْ لَيْلَةً

تُحْرِقُ أَصَابِعَهَا بِالْجَمْرِ

هكذا...؟

(٣)

الشَّهْوَةُ تَزْعَقُ

عَلَى سَرِيرِهِ

... تَسْنُ سَحَابَهُ

تُبْرِقُ فِيهِ كَالتَّأْوِهَاتِ

تَلْقُهُ بِالطَّرَاوَةِ

وَتَعَصُرُهُ

الوحيدة

(١)

لأَقْيَتْهَا فِي الْبَارِ تَطَرُّدُ قَلْبِهَا عَنْهَا كَفُصْنِ يَابَسٍ
يَخْضَرُّ لَمَّا تَسْتَفِيقُ لَوْحِهَا خَلْفَ النَّدِيمِ عَلَى السَّرِيرِ.
صَبَاحُهَا قَبْلَ الْمَسَاءِ بِسَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ. تَكْشُ عَنْ
أَيَّامِهَا غَبَشَ الْقَبِيلَةِ بِالضِّيَاعِ عَلَى السَّفِينَةِ دُونَ
مَوْجٍ فِي الرَّمَالِ يُعِينُهَا. الْعَثْرَاتُ أَفْضَلُ مَا خَطَّتْ،
قَالَ الْأَقَارِبُ لِلْأَقَارِبِ وَالْإِلَهَ . رَأَيْتُهَا فِي الْبَارِ

تَشْرَبُ دَمْعَهَا مِنْ عَيْنِ نَادِلَةٍ بِكَيْتٍ عَلَى رُبَاهَا مَرَّةً
أَوْ مَرَّتَيْنِ هُنَا، هُنَا فِي عُرْفَتِي. لَا قَيْتُهَا غَيْمًا يُمَوِّجُ
وَلَا شَوَاطِيءَ فِي يَدَيْهَا. لَا فَمٌ إِلَّا فَمِي فِي صَدْرِهَا
الآنَ، ارْتَحَتِ أَنْقَاضُهَا مِنْ رَعَشَتَيْنِ، فَقَطِ لِتُهْنَأُ،
لَا لِتَحْمَلَ نَجْمَةً خَطَأً. أَنَا فِي الْبَارِ مَنْ لَا قَيْتُهَا، وَهِيَ
الَّتِي تَمْتَدُّ خَلْفِي الْآنَ فِي هَذَا السَّرِيرِ وَحِيدَةً..

(٢)

.. كانت تظنُّ جمالها يَبْقَى فَلَمْ تَنْفَعْ مَسَاحِيقُ الْغُبَارِ
قالَ الأَقْرَبُ للأَقْرَبِ. وَهِيَ جالِسةٌ كَأُمِّ تاكلِ،
تتذَكَّرُ التُّوَارَ: عادُوا مِثْلَ مَوْتِي فِي الحِياةِ إلى البِيوْتِ ،
وَمَا اسْتَطاعَتْ أَنْ تُشَارِكَ فِي الجِنازَةِ. لَنْ يُلاقِيها
هُنَاكَ سِوَى السُّيُوفِ الحُمْرِ مِنْ صَدائِ
وَقَتْلِ للنِّساءِ العاشِقاتِ
وَلَنْ يُلاقِيها هُنَاكَ سِوَى الفِراقِ ، سِوَى الغُبَارِ

(٣)

..حَضَنْتُ نَفْسَهَا فِي زِحَامِ التَّوْحِيدِ .سَوْفَ تَشُدُّ يَدَيَّ حُلْمَهَا

عِنْدَمَا تَسْتَفِيقُ . سَتَزْرَعُ فِي قَلْبِهَا وَرْدَةً مِنْ رُمُوشِ

الصَّبَاحِ ، وَتَمْشِي إِلَى غَدَاهَا دُونَ أَنْ تَنْتَظِرُ

غَدَاهَا حَيْثُ كَانَتْ . لَهَا أَنْ تَعِيشَ كَمَا لَا يَشَاءُ زَمَانُ أَبِيهَا

الطَّوِيلُ . لَهَا أَنْ تَعِيشَ عَلَى مَوْجِهَا تَحْتَ غَيْمَتِهَا

وَلَهَا أَنْ تَعِيشَ ..

ليل المسكينة

(١)

لَيْلِي الْمَسْكِينَةُ كَانَتْ نَائِمَةً

لَمَّا وَجَدَهَا مَقْتُولَةً

وَعَلَى يَمَانِهَا مِرَاةٌ

لِخُطَى عَيْنَيْهَا الْمَشْلُولَةِ

لَمْ يَأْسَفْ أَحَدٌ

حِينَئِذٍ فِي الْبَيْتِ

لَمْ يَصْرُخْ أَحَدٌ

وَيَقُلُ : يَا لَيْتَ

لَوْ كَانَتْ تَقْدِرُ

أَنْ تَدْفِنَ جُنَّتَهَا

حِينَئِذٍ

لَمْ يَحْمِلْهَا لِلدَّفْنِ أَحَدٌ

.. اللَّهُ أَحَدٌ

اللَّهُ أَحَدٌ !

(٢)

: ممنوعٌ أن تَقْفِي

فوقَ ظلالِ عاليةٍ

ممنوعٌ ..

أن تبتعدي أكثرَ من تَوْبِكُ

ممنوعٌ أن تمشي وحدك

خارجَ قلبك

ممنوعٌ ان تسقي وردك

ممنوعٌ ممنوعٌ !

مسموحٌ

يا بؤبؤَ عيني

أن تبكي

لَمَنْ....

(١)

لَرِيْمَا يَدَانِ مِنَ الرِّيحِ فِي بَحْرِ هَذَا الْعَرَاءِ
لَهَا نَجْمَتَانِ عَلَى صَدْرِهَا دُونَ لَيْلٍ
تُضِيئَانِ هَذَا الْفِضَاءُ
لَهَا وَاحِدَةٌ دُونَ نَخْلِ، وَلَا رَمْلَ بَلْ عَسَلٌ
حَوْلَهَا وَفَمِي كَالسَّمَاءِ فَمِي كَالسَّمَاءِ
لَهَا مَا أَشَاءُ وَلِي مَا تَشَاءُ

(أَيُّ يَابِسَةٍ هَذِهِ فِي الْأُفُقِ

.. دُونَ بَحْرٍ وَلَا قَارِبٍ؟

أَيُّ يَابِسَةٍ هَذِهِ لَمْ نَصِلْهَا

.. لِأَهْجُرَهَا مِثْلَ آدَمَ

وَتَهْجُرَهَا مِثْلَ حَوَاءَ

مِنْ دُونَ تَفَاحَةٍ .. غَيْرِ نَهْدِينَ يَرْتَعِشَانِ؟

وَمِنْ دُونَ أَفْعَى .. سِوَى رَأْسِهَا وَالْعُنُقِ؟

.. أَيُّ يَابِسَةٍ هَذِهِ فِي الْأُفُقِ؟)

لَرِيْمَا يَدَانِ مِنَ الرِّيحِ فِي بَحْرِ هَذَا الْعِرَاءِ

وَسَاقَانِ مِنْ خَمْرَةٍ دُونَ كَأْسِ سِوَى شَفْتَيَّ

وَسِرْبٍ مِنَ النَّحْلِ تَمْتَصُّهُ وَرَدَّةُ التَّوْتِيَاءِ

.. لَهَا مَا تَشَاءُ وَلِي مَا أَشَاءُ!

(٢)

لَمِيسَاءَ رَائِحَةٌ لَا تَزَالُ تُلَوِّنُ هَذَا الْغِيَابُ
وَمَا زَالَ مِنْهَا مَلَامِحُهَا فِي الْمَرَايَا ، وَطَيْفٌ
عَلَى الْبَابِ . مَا زَالَ مِنْهَا سَحَابٌ
يُظَلِّلُ هَذَا السَّرَابُ

لَهَا اللَّيْلُ حَتَّى الْغُرُوبِ وَلَكِنَّهَا لَا تَجِيءُ

..سَتَحْرُسُهَا فِي الْخِيَامِ دُرُوعٌ أَقَارِبِهَا

مِنْ فَرَاشَتِهَا

وَمِنْ وَرَدَتِي

وَلِي اللَّيْلُ وَحَدِي

وَهَذَا الْفَرَاغُ الْمُمَدَّدُ جَنْبِي

وَرَائِحَةٌ

لَا تَزَالُ تُلَوِّنُ هَذَا الْغِيَابُ

(٣)

لِنَائِلَةِ غَيْمَةٍ نَّتَلَقِي بِهَا

فَوْقَ خَيْمَتِهَا

لَا يَرَانَا أَحَدٌ

نَتمَاوِجٌ فِيهَا

إِلَى أَنْ يَظِيرَ الْجَسَدُ

مِنْ مَحَابِسِهَا

وَيَفِيضَ نَدَى

فَوْقَ رَمْلِ الْبَلَدِ

.. وَلَهَا قُبُلَاتُ الْهَوَاءِ

لَهَا غَيْمَةٌ تَسْتَنْظِلُ بِهَا فِي اللَّيَالِي

وَوَعْدٌ بَأَنْ تَلْتَقِيَ مَعَهُ

مَرَّةً

ذكريات الرماد

.. أَيْنَ خَدُّ الْحَبِيبَةِ

فِي مَا تَبَقِيَ مِنَ الْعَطْرِ؟ أَيْنَ يَدَاهَا

عَلَى نُدْبِ اللَّمَسَاتِ الرَّقِيقَةِ؟

أَيْنَ الْعُيُونُ الَّتِي رَسَمْتَنِي؟

الَّتِي أَشْعَلَتْ فِي نُقُوبِي النُّجُومَ؟

كُلُّهُ عَابِرٌ
وَالْمَكَانُ يُغَادِرُ آثَارَنَا
كَالْغُيُومِ
..وَتَدَقُّنَا
ذَكَرِيَاتُ الرَّمَادِ
حِينَ لَا نَلْتَقِي
فِي غَدٍ
عَابِرٍ

أغاني شهيد كفر قاسم

كنت أقتلهم بهيوني

(١)

لم أمتُ

.. زرعوا نجمتي في الترابِ

وهذي يدي

في جذوع الشجرِ

وعيونني عليها تمرُ

ودمائي مَطْرُ

(٢)

قاتلي ماتَ

.. هل ماتَ أمْ لم يمُتْ

عندما سألَ من جَسَدِي دَمُهُ

طعنةً طعنةً؟

.. ماتَ أمْ لم يمُتْ

عندما ذرَفَتْ طفلةٌ قَلْبَها كَلَّهُ

دمعةً دمعةً؟

..ماتَ أم لم يمُتْ

عندما زُرْتُ أحلامَهُ

ليلةً ليلةً؟

.. قاتلي ماتَ

لكنني لم أمُتْ

أبداً

لم أمُتْ

(٣)

عندما عدتُ من غيبتي

لم أجدُها هنا جسدي

.. عندما عدتُ من غيبتي

ورأيتُ هنا ولدي

واقفاً فوق ظلي القليل

وفي كفه قبضتي

وعلى ظهره

لم تزل صخرتي

قال لي : يا أبي

جنةُ الخلد في بلدي!

(٤)

كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ

يَقْتُلُنِي الشَّوْقُ يَا وَرْدَتِي

كَيْ أَعُودَ إِلَى حُضْنِ لَيْلِكَ

لَكِنَّهُمْ قَتَلُونِي

..عندَ مَدْخَلِ قَرِيَّتِنَا انتظروني

لَمْ أَكُنْ حَجَلًا كَيْ أَخَافَ الرَّصَاصَ

وَلَا ظَبِيَّةً فِي الْفَلَاةِ

..لماذا إذاً قَتَلُونِي؟

لم أكنُ داخلاً غيرَ بيتي الحزينِ

كما يدخلونَ منازلَهُمُ

عائدينَ مِنَ الشُّغْلِ...

هل شغلُهُمُ

كانَ

أن يَقتُلُوني؟

.. كنتُ في ذلكَ اليومِ

أقتلُهُمُ بعُيونِي!

كان يمكنك أن تعيش مزيداً من الموت

(١)

عُدْتُ يَا مَنْزِلِي

لَمْ أَجِدْ فِي الطَّرِيقِ طَرِيقِي إِلَيْكَ

مَضَى زَمَنِي وَمَكَانِي مَضَى

لَمْ أَجِدْكَ بِجَانِبِ زَيْتُونَتِي

لَمْ أَجِدْهَا

بَحَثْتُ عَنْ الظِّلِّ

لا ظِلَّ لِي

تَحْتِ شَمْسِ الدُّخَانِ

وَلَا بَيْتَ لِي

حَيْثُ كُنْتُ أَعُودُ

مَكَانِي انْقَضَى

مَكَانِي انْقَضَى

(٢)

لا أعرفكم

.. لا أعرف كيف تُضيئون اللَّيْلَ، وترنونَ الى نافذةٍ

لا أعرف كيف تُطلُّ على كُلِّ مَكَانٍ حتَّى قاعِ البحرِ

ولَيْسَ تطلُّ على شَجَرٍ يحرسُ بابَ البَيْتِ المُغمضِ

أعرفُ صندوقَ العَجَبِ

وأعرفُ ضوءَ القَمَرِ

لكأني من أهلِ الكهفِ

كأني غبتُ بلا سَفَرِ

وَكَأَنِّي عُذْتُ

وَمَا زِلْتُ بُخَاراً

فِي الْمَطَرِ

..لَمْ تُورِقْ أَغْصَانِي هَذَا الْأُزْيَاءَ. وَلَمْ يَنْبُعْ مِنْ

حَائِطٍ مَنَزِلْنَا غَيْمٌ. كُنَّا نَمْشِي صَوْبَ الْعَيْنِ عَطَاشِي

كَالْأَشْجَارِ لِنَقْطِفَ بَعْضَ الْمَاءِ مِنَ الصُّوَانِ ، وَكُنَّا

نَمَلًا قَرَبْنَا عَطَشًا .

..أَعْرَفُ دَرْبَ الْعَيْنِ

وَأَعْرَفُ أَسْمَاءَ الشَّجَرِ

لَكَأَنِّي لَا أَعْرَفُ هَذَا الْأَرْضَ

وَلَا أَعْرَفُ فِيهَا ثَمْرِي

لَكَأَنِّي لَا أَعْرَفُكُمْ

لَا أَعْرَفُكُمْ

(٣)

كَانَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعِيشَ مَزِيداً مِنَ الْمَوْتِ

يَا أَيُّهَا الْمَوْجُ

يَهْطُلُ فَوْقَ رِمَالِ بِلَادِي

مَسَاحِقَ تَمَحَوِ تَجَاعِيدَنَا

كَانَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَشَاهِدَ كُلَّ نُجُومِ الْجِنَازَةِ:

مِنْ شَجَرِ ظَلٍّ يَنْزِفُ فَوْقَ الدَّمَاءِ نُشَارَتَهُ

وَتُرَابِ الشُّوَارِعِ يُدْفَنُ حَيًّا

إِلَى الرِّيحِ تَخْنُقُهَا النَّارُ..

كَانَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أُرَاقِبَ مَوْتِي رُويِدًا رُويِدًا:

هُنَا فَفَقَّأُوا عَيْنَ قَرِيَّتِنَا

وَهُنَا أَطْفَأُوا لَيْلَنَا

فَحَصَدْنَا مِنَ الْأَرْضِ جُوعًا

لَهُ طَعْمُ هَذَا الدُّخَانِ

وَقَصَدْنَا الْمَدْنَ

دُونَنَا

وَأَضَعْنَا الْمَكَانَ

كَانَ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَعِيشَ مَزِيدًا مِنَ الْمَوْتِ

لَوْ أَنَّني لَمْ أُمَّتْ

فِي مَسَاءِ حَزِينٍ ..

كم غد سرقوا من يدي!

كَمْ غَدٍ سَرَقُوا مِن زَمَانِي عَلَى الْأَرْضِ!
كَمْ عَوْدَةٍ فِي الْمَسَاءِ إِلَى مَنْزِلِي!
كَمْ غُدُوًّا إِلَى الْخُبْزِ..
وَالطَّيْرُ فِي وَكْرِهَا كَعِيَالِي الصَّغَارِ؟

..كَمْ غَدٍ سَرَقُوا مِن يَدِي
فِي الطَّرِيقِ الْقَلِيلِ إِلَى الْمَوْتِ!
..كُنْتُ أَمْدُ يَدِي فِي النَّهَارِ
لِلْهِ فَيَرْزُقُنِي نِعْمَةَ النَّوْمِ

فِي جَنَّةٍ كَالعجائبِ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ
..قَتَلُونِي وَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَعُودَ
مِنَ البَحْرِ
فِي نَبْضَةٍ مِنْ بَقَايَا السَّفِينَةِ
..لَمْ أَنْجُ يَا وَلَدِي
فَأَنْجُ أَنْتَ
وَخُذْ بِيَدِي
وَعُدِي
وَامْضِ فِي جَسَدِي
نَبْضَةً نَبْضَةً
إِمضِ
يَا وَلَدِي

* هذه القصيدة فازت بجائزة " الشهيد " الشعرية عن

مجلس كفر قاسم المحلي عام ١٩٩٩

قد نحتاجُ إلى البحر

(١)

فِي لَيْلَةٍ بِلا قَمَرٍ
وَلَا مَصَابِيحَ تُضِيءُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ
سَتَهَبُ السَّفِينَةُ:
أَحْلَامُنَا تَهْتَشُ
مِثْلَ وَرَقٍ بِلا شَجَرٍ
وَفِي وُجُوهِنا حُفْرٌ

(٢)

فِي الْمُدُنِ الْمُكْتَظَّةِ بِالْأَصْوَاتِ
مَنْ يَنْتَبَهُ لِنَافِذَةٍ فِي رَابِعِ طَابِقٍ؟
مَنْ يَنْتَبَهُ لِغَيْمٍ مَرَّ عَلَيْنَا -
إِلَّا حِينَ يَغِيبُ الظِّلُّ
وَقَدْ نَشْعُرُ بِالْبَرْدِ قَلِيلًا؟
.. قَدْ نَحْتَاجُ إِلَى الْبَحْرِ
لِنَذْكُرَ أَنَّ سَمَاءَ مَا
تَعْلُو فَوْقَ الْأَرْضِ
كهاوية

(٣)

عَدَمٌ مِنْ وُجُودٍ
.. وَأَفْقَدُ هَذَا السَّرَّابَ
وَلَا أَجِدُ الْمَاءَ .

مَاذَا أُرِيدُ مِنَ الرِّيحِ
بَيْنَ الْقُبُورِ؟
.. سَأُنْسِي الْجِبَالَ
وَأَنْظُرُ فِي عَيْنِ مَنْ سَأَحِبُّ
لِلْمَلْحِ خَوْفِي
مِنَ
الْمَوْتِ
..

(٤)

بانتظارِك
سَوْفَ نُعَدُّ هَبَاءَ الْحَيَاةِ
وَنَلْمَحُ ظِلَّكَ رِيحاً
نُعَدُّ لَهَا كُلَّ شَيْءٍ
كَجَمْرٍ...

لِمَاذَا تَأَخَّرَتِ الرِّيحُ
رَغْمَ الرَّمَادِ الرَّمَادِ الرَّمَادِ؟
لِمَاذَا تَأَخَّرَتِ
رَغْمَ هَبَاءِ الْحَيَاةِ
المُعَادِ المُعَادِ المُعَادِ؟
لِمَاذَا؟

الفهرس

الصفحة	القصيدة
	من الآن كنْ يا طريقي طويلاً
٩	بابٌ في السَّقْفِ
١١	كيف لي أنْ أعود؟
١٣	في انتظارِ رُجوعك
١٥	سأذكر تلك المدينة
١٧	قَضِينَا سريراً معاً
١٩	لم يَنْتَبِهْ
٢١	لماذا قَطَعْتُ الطَّرِيقَ الطَّوِيلَ
	ذِكْرِيَاتُ الرَّمَادِ
٢٥	أحبني أكثر..
٢٦	رسالتان

٢٩	مَشَاهِد
٣٤	يُمْكِنُ
٣٦	كَمْ لَيْلَةٌ هَكَذَا تَنْطَفِئُ ؟
٣٩	الوَحِيدَةُ
٤٣	لَيْلَى الْمَسْكِينَةِ
٤٦	لَهُنَّ....
٥٢	ذَكَرِيَاتُ الرَّمَادِ
	أَغَانِي شَهِيدِ كَفَرِ قَاسِمِ
٥٧	كُنْتُ أَقْتُلُهُمْ بِعُيُونِي
٦٣	كَانَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَعِيشَ مَزِيداً مِنَ الْمَوْتِ
٦٩	كَمْ غَدٍ سَرَقُوا مِنْ يَدِي!
٧١	قَدْ نَحْتَا جُالسَ الْبَحْرِ

أَحَبَّنِي أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي

وَضَمَّنِي كَالثُّوبِ

بَلْ أَقْرَبْ يَا حَبِيبِي

وَشَدَّنِي إِلَيْكَ كَالْأَرْضِ

لَأَحْيَا فِيكَ يَا حَبِيبِي

وَلَا تَمَلَّ مِنْ كَلَامِ الْحُبِّ

فِي أُذُنِي يَا حَبِيبِي

وَلَا تَغِبْ

إِلَّا لَكِي تَشْتَاقَ لِي

أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي

أَنَا بِحَاجَةٍ لِعَشْرَةِ مِنَ الْقُلُوبِ

أَحَبَّنِي أَكْثَرَ يَا حَبِيبِي